

العزلة والافتقار

جميع الحقوق محفوظة لدار الوطن للنشر

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الوطن

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس: ٤٧٦٤٦٥٩

العزلة والانفراد

تصنيف

الحافظ الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبد البغدادى

الشهيد بابن أبي الدنيا

ت (٥٢٨)

صُحِّبَ نَصَّهُ وَقَدَّمَ لَهُ وَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ

أبو عبادة مشهور بن حسن آل سلمان

دار الوطن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومن يُضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾
[آل عمران: ١٠٢].

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ،

وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ محدثةٍ بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار.

أما بعد؛ فهذا جزء فيه حثُّ على «العزلة»، وترغيب في «الانفراد»، وترك لـ «المخالطة»، وتنفير من «الاجتماع»، ولعله أول ما كُتب في هذا الموضوع.

و«العزلة» المشروعة التي دعا إليها جمعٌ من السلف ليس معناها «مفارقة الناس في الجماعات والجمُعات، وترك حقوقهم في العبادات وإفشاء السلام وردِّ التَّحيَّات، وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة لهم، وصنائع السُّنن والعبادات المستحسنة فيما بينهم؛ فإنها مستثناة بشرائطها، جارية على سبيلها، ما لم يَحُلْ دونها سُغْلٌ، ولا يمنع عنها مانع عذر، إنما أرادوا بالعزلة ترك فضول الصحبة، ونبذ الزيادة منها، وحطَّ العلاوة التي لا حاجة بك إليها»^(١).

وعليك أخي القارئ أن تلاحظ الفرق بين العزلة الواردة في النصوص الشرعية والآثار السلفية وبين العزلة الواردة عند المبتدعة من الصوفية والرهبان، وقد اشتمل الكتاب على القسمين.

فهي (أي: العزلة) في النصوص «تابعة للحاجة، وجارية مع المصلحة»^(٢)، وعند الصوفية مطلوبةٌ لذاتها، مرغوبةٌ للذَّاتِها؛ فيقصدون «الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة، ولا مسجد تُصَلَّى فيه الصلوات الخمس، إما مساجد مهجورة، وإما غير مساجد؛ مثل: الكهوف، والغيران التي في الجبال، ومثل المقابر، ولا سيما قبر من يحسن به الظن، ومثل المواضع التي

(١) «العزلة» (١١ - ١٢) للخطابي.

(٢) «العزلة» (١١) للخطابي.

وانظر كلاماً حسناً في هذا لابن الوزير في كتابه: «الأمر بالعزلة في آخر الزمان» (ص

يقال: إن بها أثر نبي أو رجل صالح، ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية»^(١)!!

والغرض التنبيه بهذا على جنس من العبادات البدعية، وهي الخلوات؛ سواء قدّرت بزمان أو لم تقدّر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة وقوت معين ولهم تنزلات معروفة، وقد بسط الكلام عليها ابن عربي الطائي ومن سلك سبيله؛ كالتلمساني، وهي تنزلات شيطانية قد عرفتها وخبرت ذلك من وجوه متعددة، لكن ليس هذا موضع بسطها، وإنما المقصود التنبيه على هذا الجنس.

ومما يأمر به: الجوع، والسهر، والصمت مع الخلوة بلا حدود شرعية، بل سهر مطلق، وجوع مطلق، وصمت مطلق مع الخلوة، كما ذكر ذلك ابن عربي وغيره، وهي تولد لهم أحوالاً شيطانية»^(٢).

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠ / ٤٠٦).

(٢) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠ / ٤٠٣).

قال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ٣٧٨): «كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالاً بالعلم والتعب؛ إلا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جماعة ولا جماعة ولا عيادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة البطالين.

وقد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة؛ فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان بيت وحده ويصبح وحده؛ ففاته الجماعة، وصلاة الجماعة، ومخالطة أهل العلم، وعمومهم اعتزل في الأربطة؛ ففاته السعي إلى المساجد، وتوطنوا على فراش الراحة وتركوا الكسب.

وقد قال أبو حامد الغزالي في «كتاب الإحياء»: مقصود الرياضة تفرغ القلب، وليس ذلك إلا بخلوة في مكان مظلم، وقال: فإن لم يكن مكان مظلم؛ فيلف رأسه في جبهته، أو يتدثر بكساء أو إزار؛ ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال حضرة الربوبية.

وأما الخلوة والعزلة والانفراد^(١) المشروع؛ فهو ما كان مأمور إيجاب أو استحباب.

فالأول؛ كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها؛ كما قال تعالى:

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنعام: ٦٨].

ومنه قوله تعالى عن الخليل: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ [مريم: ٤٩].

وقوله عن أهل الكهف: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف﴾ [الكهف: ١٦]؛ فإن أولئك لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة، ولا من يأمر بشرع نبي؛ فلهدا أووا إلى الكهف.

وقد قال موسى: ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ [الدخان: ٢١].

وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع، وذلك بالزهد فيه؛ فهو مستحب، وقد قال طاوس: «نعم، صومعة الرجل بيته، يكف فيه بصره وسمعته»^(٢).

قال المصنف رحمه الله: قلت: انظر إلى هذه الترتيبات، والعجب كيف تصدر من فقيه عالم! ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق، وأن الذي يشاهده جلال الربوبية! وما يؤمنه أن يكون ما يجده من الوسوس والخيالات الفاسدة! وهذا الظاهر ممن يستعمل التقليل في المطعم؛ فإنه يغلب عليه المايخوليا.

(١) قال السُّهْرُوردي في «عوارف المعارف» (ص ٤٢٤ - ٤٢٥): «ويجوز أن يقال: الخلوة غير العزلة؛ فالخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس، وما تدعو إليه، وما يشغل عن الله؛ فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود».

(٢) سيأتي عند المصنف برقم (٢٥) على أنه لأبي الدرداء.

وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل، فتخلى في بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة؛ فهذا حق، كما في «الصحيحين»؛ أن النبي ﷺ سئل: أي الناس أفضل؟ قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة؛ طار إليها يتبع الموت مظانه، ورجل معتزل في شعب من الشعاب؛ يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويدع الناس إلا من خير»^(١).

وقوله: «يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة» دليل على أن له مالاً يزيه وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم؛ فقد قال صلوات الله عليه: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تُقام فيهم الصلاة جماعة؛ إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان»^(٢)، وقال: «عليكم بالجماعة؛ فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم»^(٣).

* المفاضلة بين العزلة والمخالطة:

تنازع العلماء في المفاضلة بين العزلة والمخالطة؛ إما نزاعاً كلياً، أو نزاعاً حالياً.

فممن رأى استحباب العزلة: سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض،

(١) انظر من كتابنا: (رقم ١٦ - ١٨).

(٢) أخرجه: أبو داود في «السنن» (رقم ٥٤٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢ / ١٠٦ - ١٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٥ / رقم ٢١٠١ - الإحسان)، وابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ١٤٧٦)، والحاكم في «المستدرک» (١ / ٢١١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣ / ٥٤)، والبعثي في «شرح السنة» (رقم ٧٩٣)؛ عن أبي الدرداء. وإسناده حسن.

(٣) قطعة من آخر الحديث السابق. وانظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠ / ٤٠٤ -

وسليمان الخواص، وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي، وحاتم الأصم، ويوسف ابن أسباط، وداود الطائي.

وممن ذهب إلى استحباب المخالطة وترك العزلة: سعيد بن المسيب، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وعبدالله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وسفيان بن عيينة، وشريح القاضي، وعامر الشعبي، وغيرهم^(١).

وحقيقة الأمر أن الخلطة تارة تكون واجبة، أو مستحبة^(٢).

والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة، وجماع ذلك أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى؛ فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان؛ فهي منهي عنها؛ فلاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات؛ كالصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين،

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٢ / ٢٢٢)، و«عوارف المعارف» (ص ٤٢٤) للسَّهْرَوْردي، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٠٩ - ١١٠)، و«موعظة المؤمنين» (٢ / ١٦٢) للقاسمي، و«مفتاح السعادة» (٣ / ٢٧٠) لطاش كبرى زاده، و«آداب الدنيا والدين» (ص ١٨٤ - ط محمد كريم راجح).

وأَسند الدَّيْنُورِي في «المجالسة» (بتحقيقي) - ومن طريقه ابن رُشيد في «ملء العيبة» (٣ / ١٠٣ - ١٠٤) - عن بشر بن عمر؛ قال: كان مالك بن أنس رضي الله عنه يقول: من أراد صلاح دينه؛ فعليه بترك مخالطة الناس كلهم، فإن كان طالحاً يسلم، وإن كان صالحاً اشتغل بنفسه، وبما يصير إليه غداً؛ فإن في الموت وهوله شغلاً. (استدراك ١).

(٢) قال القاسمي في «موعظة المؤمنين» (٢ / ١٦٤): «وبالجملة؛ فلا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات في علم، بحيث لو خالطه الناس؛ لضاعت أوقاته، أو كثرت آفاته». وقال السَّهْرَوْردي في «عوارف المعارف» (ص ٤٢٤): «قيل: العزلة نوعان: فريضة وفضيلة؛ فالفريضة العزلة عن الشر وأهله، والفضيلة عزلة الفضول وأهله».

وصلاة الكسوف، والاستسقاء، ونحو ذلك؛ هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوارج المارقين، وإن كان أئمة ذلك فجاراً، وإن كان في تلك الجماعات فجار، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيماناً؛ إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له، ونحو ذلك.

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره؛ فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه؛ إما في بيته كما قال أبو الدرداء: «نعم، صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه»، وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ، وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا، وما هو الأصلح له في كل حال؛ فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم.

وكذلك السبب وترك السبب؛ فمن كان قادراً على السبب، ولا يشغله عما هو أنفع له في دينه؛ فهو مأمور به، مع التوكل على الله، وهذا خير له من أن يأخذ من الناس ولو جاءه بغير سؤال، وسبب مثل هذا عبادة الله، وهو مأمور أن يعبد الله ويتوكل عليه، فإن تسبب بغير نية صالحة، أو لم يتوكل على الله؛ فهو مطيع في هذا وهذا، وهذه طريق الأنبياء والصحابة^(١).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن رجل منقطع في بيته لا يخرج ولا يدخل، ويصلي في بيته ولا يشهد الجماعة، وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه، ثم إنه يخترع العياط من غير سبب، وتجتمع عنده الرجال والنساء؛ فهل يسلم له حاله؟ أو يجب الإنكار عليه؟

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠ / ٤٢٥ - ٤٢٦).

فأجاب: «هذه الطريقة طريقة بدعية، مخالفة للكتاب والسنة ولما أجمع عليه المسلمون، والله تعالى إنما يُعبد بما شرع، لا يُعبد بالبدع، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ فإن التبعيد بترك الجمعة والجماعة بحيث يرى أن تركهما أفضل من شهودهما مطلقاً كفر، يجب أن يستتاب صاحبه منه، فإن تاب وإلا قتل؛ فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لا يُعبد بترك الجمعة والجماعة، بل يُعبد بفعل الجمعة والجماعة، ومن جعل الانقطاع من ذلك ديناً؛ لم يكن على دين المسلمين، بل يكون من جنس الرهبان الذي يتخلون بالصوامع والديارات، والواحد من هؤلاء قد يحصل له بسبب الرياضة أو الشياطين - بتقريبه إليهم، أو غير ذلك - نوع كشف، وذلك لا يفيد، بل هو كافر بالله ورسوله محمد ﷺ» (١).

* فوائد العزلة:

وهي ست:

الأولى: الفراغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاستكشاف بأسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوته السماوات والأرض؛ فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة؛ فالعزلة وسيلة إليه.

وإذا عرفت ذلك، فمن تيسر بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر تحقق في معرفة الله؛ فالتجرد له أفضل، فإن المطلب الأعلى أن يموت الإنسان محبباً لله عارفاً بالله، وأصل ذلك الخلوة والعزلة.

الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض للإنسان لها غالباً

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١ / ٦١٢).

بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة، وهي أربعة:

أحدها: الغيبة، وهي التي يتفكك بها الناس ويتنقحون؛ فهي طعمتهم ولذتهم؛ فإن وافقتهم أثمت، أو سكت فكنت شريكاً لهم، والمستمع أحد المغتابين، أو أنكرتهم فأبغضوك واغتابوك؛ فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما انتهوا إلى الاستخفاف والشتيم.

وثانيها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهو أصل من أصول الدين؛ فإن سكت عصيت الله تعالى، وإن أنكرت تعرضت لأنواع من الضرر، وربما يجره طلب الخلاص منها إلى معاصي هي أكثر مما نُهي عنه ابتداءً.

وثالثها: الرياء؛ فهو الداء العضال الذي يعسر التحفظ منه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا، وأقل ما يلزم منه النفاق؛ فإنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه توافقه؛ صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتهما كنت شرار الناس، وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه، ولا يخلو ذلك عن كذب؛ إما في الأصل، أو في الزيادة، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت وكيف أولادك وأنت فارغ القلب من همومهم، وذلك نفاق محض.

ورابعها: مسارقة الطبع لما يشاهد من أخلاق الناس وأعمالهم؛ فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، ومن جالس فاسقاً مدة يرى في نفسه أنه لا يستثقل الفساد مثل استثقاله قبل ذلك؛ إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع ويسقط استعظامه، فإذا طالت صحبته؛ أوشك أن يتخلل القوة الرادعة، ويذهن الطبع للميل إليه أو دونه، ومن طال مشاهدته للكبائر؛ استحقق الصغائر من نفسه، ثم أثم بالغاً ما بلغ.

الثالثة: الخلاص عن الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها، وقلما تخلو البلاد عنها.

الرابعة: الخلاص من شر الناس من الغيبة وسوء الظن بك والتهمة عليك، والافتراحت والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وربما يسيئون الظن بسبب توهمهم، قال المتنبي^(١):

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمِ
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عَدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشُّكِّ مُظْلِمِ

الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عنهم.

أما انقطاع طمعهم عنك؛ ففيه كل الجدوى؛ لأن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بصلاح نفسه أولى، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان؛ رضوا عنه كلهم، ولو خصص؛ استوحشوا.

وأما انقطاع طمعك عنهم؛ فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها؛ تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى الخيبة في أكثر الأطماع فيتأذى به، ومهما اعتزل لم يشاهد ولم يشته ولم يطمع، ومن شاهد زينة الحياة الدنيا؛ فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر، والصبر أمرٌ مِنَ الصُّبْرِ، ويحتال في طلبها فيهلك في الدنيا بالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، وفي الآخرة بإيثاره متاع الدنيا

(١) في «ديوانه» (٤ / ٢٦٥ - بشرح البرقوقى)، يقول في البيت الأول: «إذا كان فعل المرء سيئاً قبيحاً؛ ساء ظنُّه بالناس لسوء ما انطوى عليه، وإذا توهم في أحد ربيبة؛ أسرع إلى تصديق ما توهمه؛ لما يجد من مثل ذلك في نفسه، وهو كقول الآخر:

وَمَا فَسَدْتُ لِي - يَشْهَدُ اللَّهُ - نِيَّةٌ عَلَيْكَ بَلِ اسْتَفْسَدْتَنِي فَأَتَهَمْتَنِي
ويقول في الآخر: «ولسوء ظنه يعادي الذين يحبونه بوشاية أعدائه؛ فلا يميز صديقه من عدوه؛ إذ يشك في كل أحد، ويصبح في كل أموره حائراً بسبب أنه يصدق ما يتوهمه».

على ذكر الله تعالى .

السادسة : الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء ومقاساة أخلاقهم ؛ فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر، وأيضاً في رؤية الثقليل خوف ارتكاب غيبته واستنكار ما هو صنع الله تعالى .

وفي العزلة أمان من جميع هذه الآفات^(١) .

* آفات المخالطة :

عدّ ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم «مدارج السالكين» خمسة أسباب لفساد القلب، ومن بين هذه الأسباب : كثرة الخلطة، وفصل في بيان الآفات التي تؤثرها كثرة الخلطة ؛ فقال رحمه الله تعالى :

«فأما ما تؤثره كثرة الخلطة ؛ فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودّ، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهماً وغمّاً، وحماً لما يعجز عن حمله من مؤنة قراء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم؛ فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟!»

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت من بلية؟!»

وهل آفة الناس إلا الناس؟!»

وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قراء السوء؟! لم يزالوا به

(١) مأخوذ من : «الإحياء» (٢ / ٢٢٦ - ٢٣٦)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ١١١ - ١١٤)، و«موعظة المؤمنين» للقمي (٢ / ١٦٢)، و«مفتاح السعادة» (٣ / ٢٧٠ - ٢٧٣)، وتجد شرحاً مع سرد للأدلة على هذه الفوائد في : «الأمر بالعزلة في آخر الزمان» (ص ١١١ وما بعد) لابن الوزير، و«العزلة» (ص ١١٢ وما بعد) للخطابي .

حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطرب بعضهم من بعض؛ تنقلب إذا حقت الحقائق عداوةً، ويعض المخلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى:

﴿ويوم يَعْصُ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً .
يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾
[الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾
[الزخرف: ٦٧].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودةً بينكم في الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض؛ أعقب ندامةً وحزناً وألماً، وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنةً وذمماً من بعضهم لبعض؛ لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا؛ فكل متساعدين على باطل متوادين عليه لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوةً.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير؛ كالجمعة، والجماعة، والأعياد، والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم؛ فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم؛ فإنهم لا بد أن يؤذوه

إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين .

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات؛ فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك؛ فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه .

فإن أعجزته المقادير عن ذلك؛ فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملاء الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقاه على النفوس! وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجا إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة والذكر الدائم بالقلب واللسان، ولا ينال هذا إلا بعدةً صالحيةً، ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى، والله تعالى أعلم^(١).

* آفات العزلة:

وهي سبع:

الأولى: التعليم والتعلم، وهما أعظم العبادات، ولا يتصورا إلا

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٤٥٤ - ٤٥٦ - ط الفقي).

بالمخالطة، والعزلة قبل تعلم المفروض من العلم عصيان، فمن لم يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل واعتزل؛ فهو في غاية الخسران، ولذلك قال الربيع بن خثيم: «تفقه ثم اعتزل»^(١)؛ إلا أن المراد ينبغي أن لا تكون إقامة الجاه، والاستكثار بالأصحاب والأتباع، والتقدم على الأقران، والتقرب عند السلطان، وتولي الأعمال، واجتلاب الأموال؛ لأن هذه الأمور هلاك الدين.

وأيضاً: أن يتعلم علماً هو سبب لإثارة الخوف من الله، لا ما يتوصل به إلى إفحام الأقران والمنافسة والمباهاة؛ كطلب الكلام الجدلي، والمواعظ المزخرفة؛ إذ العزلة خير من تعلم هذه، فإن صودف طالب لله ومتقرب إلى الله؛ فلا اعتزال عنه وكتمان العلم عنه أكبر الكبائر.

ولقد صدق أبو سليمان الخطابي^(٢)؛ حيث قال: «دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك؛ فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر، إذا لقوك تملقوك، وإذا غبت عنهم سلقوك، ومن أتاك منهم كان عليك رقيباً، وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق وغيبة وغل وخديعة؛ فلا تغتر باجتماعهم عليك؛ فما غرضهم العلم، بل الجاه والمال، وأن يتخذوك سلماً إلى أوطارهم وحماراً في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم عليك دالة عليك، ويرونه حقاً واجباً لديك، ويعرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك؛ فتعادي عدوهم، وتنصر قريبتهم وخادمهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً».

وهذا كلام حق وصدق - رحم الله من قاله -؛ فإنك ترى المدرسين في

(١) انظره وتخريجه: برقم (٣٦).

(٢) نحوه في «العزلة» (ص ١١١ - ١١٢).

رق دائم، وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم؛ فكأنه يهدي تحفة إليه، فيرى حقه واجباً عليه، وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل له على مساعدة أغراضه الفاسدة الذميمة، ثم المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك، ويبدل دينه وعرضه في أبواب الظلمة لأجل أغراضهم الذميمة، ومع ذلك نسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مقادير الفضل، وسَلَقَهُ السفهاء بالسنّة حداد، وثاروا عليه ثوران الأسود والأساد، ومع هذا كله تمنيه نفسه بالأباطيل، وتدليه بحبل الغرور ويقول: إنما أفعله مريداً وجه الله، وإذاعة شرع رسوله، وناشراً دين الله، وبصير المسكين ضحكة الشيطان، ويؤول سعيه وجده إلى الخسران، وكيف لا وليس فساد أهل الزمان إلا بكثرة هؤلاء الفقهاء أولي الضلال والخذلان؟!

الثانية: النفع والانتفاع؛ لأن كلاً منهما بالمخالطة، فالمحتاج إلى الكسب في جهاد المخالطة، وإن كان معه ما يقنع به؛ فالعزلة أفضل وأولى؛ إلا أن يريد التكسب ليتصدق؛ فهو أفضل من العزلة لأجل النوافل لا لأجل التحقق في معرفة الله تعالى ومعرفة علوم الشرع، ولا من أجل الإقبال بجمع الهمة على الله والتجرد به للذكر، وأما النفع؛ فإما بماله، أو ببدنه؛ فيقوم بحاجات المسلمين حسبة لله على حدود الشرع، فهو أفضل من العزلة بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وأما الأعمال القلبية من المعارف؛ فلا معادل لها أصلاً وقطعاً.

الثالثة: التأديب والتأدب؛ بكسر النفس، وقهر الشهوات بتحمل أذى الناس، وهو أفضل من العزلة لمن لم تنهذب بعد أخلاقه؛ كخدام العلماء في الزمان الأول؛ إذ هم اليوم توسلوا بالخدمة إلى انتفاع المال والتكبر بالاستتباع، وأما التأديب؛ فهو حال العلماء معهم، فلا بد له من المخالطة.

الرابعة: الاستثناس والإيناس، وذلك قد يكون حراماً كمجالس الغيبة

واللهو، وقد يكون مباحاً في الدين؛ كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمة التقوى، ويستحب إذا كان الغرض ترويح القلب؛ فإن القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة ترويح القلب؛ فهي أولى إذا كان في بعض أوقات النهار، وربما يكون أفضل في حق البعض دون البعض؛ فليتفقد فيه أحوال القلب، وتأمل أحوال الجليس ثم اجلس معه.

الخامسة: في نيل الثواب وإنالته، أما النيل؛ فبحضور الجنائز، وعبادة المرضى، وحضور العيدين والجمعة والجماعات، وهؤلاء - سيما حضور الجمعة والجماعات - واجب، وليس في العزلة ما يعادله، اللهم إلا نادراً، وأما الإنالة؛ فهي فتح بابه للتعزية والتهنئة أو العيادة، وكذا الزيارة إن كان عالماً؛ ففي هذه الصور ينبغي أن يوزن ثواب هذه بأفاتها، ويرجح ما ترجح.

السادسة: التواضع؛ فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه من الوحدة، وقد يكون أيضاً أكبر سبباً في اختيار العزلة؛ إذ يكون مانعه عن المخالطة أن لا يوقر في المحافل ولا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحلّه وأبقى لطراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خوفاً من أن تظهر مقابحه؛ فيتخذ من البيت سترًا عليها، وعلامة ذلك أن يحب أن يُزار دون أن يزور، ويفرح بتقرب العوام والسلطان واجتماعهم على بابه وتقبيلهم يده على سبيل التبرك؛ فلا تكون عزلته للاشتغال بنفسه، وفي ذلك جهل من وجهين:

أحدهما: أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو كبير بعلمه أو دينه، وكان النبي ﷺ وأصحابه يتواضعون غاية التواضع.

وثانيهما: أن الخلق لا يغنون من الله شيئاً، وأن ضرره ونفعه بيد الله، وأن من طلب رضا الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه، وأسخط الناس عليه، بل رضا الناس غاية لا تُدرَك.